

الدنيا واسطة

إنها كلمة تدور على رأس ألسنتنا وهي التي حطمت شخصيتنا وأفقدتنا الاعتماد على أنفسنا، فأفراد العائلة يتوسط بعضهم لبعض. الابن يتوسط لأخته عند أبيه وبالعكس. والأم تلجأ إلى بنيتها والأب كذلك، وهكذا دواليك حتى إنه لا يطلب شيء في البيت من مرجعه مباشرة، ولا يذهب أحد إلى الهدف تَوًّا.

فكرت في ذلك كثيراً لعلي أهتدي إلى موضع الداء فما وجدت لهذه العلة تعليلاً إلا نشأتنا التوكلية. فالوساطة والشفاعة طبيعية في الإنسان، وجدت فيه منذ البدء، منذ خلق الإنسان الآلهة وجعلها من ذوات الاختصاص. فللزرع إله. وللخمر آخر. ولكل غرض من أغراض الحياة قديس وولي حتى الحبل والولادة. ولما صار الله الواحد الأحد فوق الجميع تحول ذاك الاختصاص إلى القديسين والأولياء فصاروا كالأطباء اليوم. هذا للأذن، وذاك للعين، وهناك للرأس، وغيره للصدر ... إلخ.

لم أجد تعليلاً أقرب إلى الحقيقة من هذا. وإلا فلماذا نرانا نلجأ في حل أبسط قضايانا إلى الوساطة؟! فإذا قلت لأحدنا: أنت يا صاحبي صاحب حق، فما حاجتك إلى الوساطة؟ أجابك وهو يأكلك بعينه: الدنيا واسطة، وإلا فلماذا نصلي إلى الله؟! ولماذا ننذر للقديسين؟ ولماذا نبتهل ونتضرع ونقرع صدورنا؟! ولماذا نوقف أملاكنا في سبيل الله؟! ألسنا نفعل ذلك ابتغاء رضا الله عنا وإدخالنا جنته ونعيمه؟ وإذا قلت لآخر: ولماذا تقف على الأبواب ما زلت تعرف أنك صاحب جدارة وكفاءة؟ أجابك. إن لمزاحمي يداً قوية. هو ظهره قوي وأنا مقطوع الظهر. فما عساي أنال إذا لم يكن لي شفيع عند أصحاب الحل والعقد؟

أما سمعت بحكاية تلك المرأة؟ أراد أهل الحي الذي تقيم فيه أن يخرجوها منه؛ لأن مقامها رفس عليهم لسوء سيرتها، فطلب القاضي من أهل الحي عريضة موقعة

من عشرين أو ثلاثين رجلاً ففعلوا. وقبل الجلسة التي كانت في أيام نضج التين هيأت تلك المرأة سلة وعبأتها جاعلة في كل تينة دينارًا وحملتها إلى القاضي، ولما لم تقدر على الوصول إليه سلمت السلة إلى الحاجب، فأعجبه تينها فأكل واحدة منها، فإذا بدينار يقع تحت أضراسه فأخذه. وجرب تينة ثانية وثالثة فإذا الأمر كذلك، فتوقف عن الامتحان. أدرك أن تلك المرأة داهية من الدواهي، وراح يحمل الهدية إلى القاضي وأنبأه بسرهما الغريب، سر التين المحشو ذهبًا.

ورفعت العريضة الموقعة من أهل الحي إلى مقام القاضي العادل وعليها توقيع ثلاثين رجلاً فقال القاضي: ولكن جاءني وفد يقارب الخمسين وجميعهم شهدوا بحسن سيرة المرأة فلا تظلموها.

فقال الحاجب: وبقي ثلاثة أربعة عندي فلم يؤديوا شهادتهم. تلك هي حالتنا. ننشأ على الاعتقاد بأن الدنيا واسطة فنلجأ إليها في كل موقف، وشعارنا دائمًا: الغاية تبرر الوسطة. كانت الأستانة تعين متصرفًا للبنان كل خمس سنوات، فتحمي سوق الوسائط في لبنان. تهبط الوجوه والأعيان من طلاب الوظائف إلى بيروت فتراهم مصطفين على أبواب القنصليات كعصفور العابور على قضيب الدبق، ونبداً الاتصالات بالسفراء لعزل فلان وتنصيب فلان، فالبطرك الفلاني يوصي بفلان وهذا المطران يريد غيره، ويجيء المتصرف فتعفر الجباه على أعتابه والقلوب تدق، ثم يبدأ العزل والتعيين وهو في البحر إذ لم يكن في ذلك العهد رفع حصانة، فالقانون في فم المتصرف.

وإذا كان حاكم لبنان غير أهوج مثل مظفر باشا تأتى قليلاً، وطمع في غلاء الأسعار وكثرة الهدايا، فالوظيفة في ذلك الزمان كانت أقصى ما يطمح إليه أبناء البيوتات في لبنان. يتنازعون عليها وينفقون بغير حساب، ومن فاز بها كان صاحب المقام الرفيع. وهكذا طارت العقارات عقاراً إثر عقار، وصار الأولون آخرين والآخرين أولين. كانت الوظيفة في ذلك الزمان تأخذ ولا تعطي، ولا تفجر الثروة أنهاراً.

حكى أن الشيخ رشيد الخازن أوصت به السفارة الفرنسية في إسطنبول ليعود إلى قائمقاميته فخف إلى البحر ليرحب بقدوم المتصرف الجديد، وكان ذاك المتصرف خفيف الرأس ابن حلال، فحين عرفوه بالشيخ دق على قفاه، أي على جيبة بنطلونه الوراثة وقال له: طمن بالك يا شيخ رشيد، أنت هنا.

فانصرف الشيخ مطمئناً مرتاح البال. وانتظر حيناً، ثم عاد ليسمع المعزوفة الأولى أي الدق على القفاه، وظل يروح ويجيء. وأخيراً عاد ليقدم الدولة المتصرف إصبغاً ظنه

إصبغاً ذهبياً لأنه ألف رؤية مثله، فانتفض المتصرف وقال: ما هذا يا شيخ رشيد؟! فقال الشيخ: هذا إصبع شربة ملح إنكليزي يا أفندينا حتى تخرجني من ذلك الموضع. وإذا كنا هكذا نشأنا منذ قرون فهل ينتظر منا العدول عن الوسطة في جميع أعمالنا؟ فنحن متكون على الوسطة والشفاعة منذ وجدنا، وقد كان القدماء يفرقون بين شفيح وشفيع، فهناك الذي لا ترد شفاعته، بينما شفاعة غيره لا تقبل ولذلك قالوا:

ليس الشفيح الذي يأتيك متزراً مثل الشفيح الذي يأتيك عريانا

فإذا سألت واحداً عزل لارتكاب أو اختلاس، ثم عاد مكرماً وارتقى درجات: كيف عدت يا هذا؟! الحمد لله على السلامة. أجابك بكل رباطة جأش ووقاحة: كانت الوسطة قوية جداً.

وإذا سألت آخر: كيف وصلت إلى هنا، وليس فيك الشروط المطلوبة؟ أجابك بعين مفتوحة: كله خطأ! الدنيا واسطة.

ويجيئك واحد ويسألك: أتعرف فلاناً؟ فتجيبه نعم أعرفه، فيفتح أمامك كيس بضاعته مستجيراً بقوله: خلصنا. ما بقي إلا نتفة واسطة وبس. فبحياتك ساعدنا، أنت صاحبه، ويناام على يدك.

وإذا سألت غيره: كيف خلصت من تلك الورطة؟ أجابك: واسطتي قوية جداً جداً، والوسطة كما تعلم غير منكورة. وكما في السما كذلك على الأرض! وإذا سألت الحقوق المقبورة في الأدرج: أي سليمان حبسك في هذه القماقم حتى نمت هنا على فرد جنب؟! أجابتك: إنها كلمة قادر يقول للأمر: كن فيكون، بل قل: هي وحي يوحى، وهذه هي الوسطة الكبرى.

هذا إذا كنت توفّق إلى وسيط صادق، أما إذا كان من يشفع بك من الذين يأكلون الطعم ويقضونها على الصنارة فالويل لك. إنه يحملك خازوقك على كنفك ولا تدري. تقتل الأيام بين زهاب وإياب وروح وتعال، تارة يستقبلك وطوراً يهزم ويتخبّأ، وقد لا يحدث بشأنك أحداً ويزعم لك أنه أقام الدنيا وأقعداها من أجلك.

لست مجنوناً حتى أنكر فعل الوسطة وألوم من يتوسطون الناس في قضاء حاجاتهم، ولا أقول لهم دعوها لأنني أعلم أن الناس مطبوعون عليها، والغريق يتعلّق بحبال الهواء. أما رأيت من يلجئون إلى رسائل التوصيات ويزورون الوسطاء؟ أما يتوسل الناس بالسحرة ويعتقدون أنهم يمهدون العقبات؟

وأخيراً نقول: ما أكبر مصيبة من يثول إليهم أمر الحل والربط والتوظيف والعزل، فإن الناس يقلقون راحتهم وراحة من عندهم من أهل حتى الخدم والحشم، حتى تتعذر عليهم الاستراحة في بيوتهم. إن أولياء الأمور لا ينكرون ما قلت عن الوسطة، فكثيراً ما يصرّحون أنهم يتكتمون في إجراءاتهم خوفاً من المتوسطين متزّرين وعريانيين. مساكين نحن البشر! قرأت أنه صنع في الريو دي جانيرو كأس علوها متران ونصف، وهي معمولة من مائة وخمسين كيلو من الذهب، ومرصعة بالجواهر حتى بلغ ثمنها المليون. ترى ألم يصنع هذا كله واسطة للتقرب لله؟ مع أن حمل الله قال: أريد رحمة لا ذبيحة.

إذا قلنا: إن آغا خان ينتفع بالذهب الذي يوزن به فما حاجة القربان إلى كأس وزنها مائة وخمسون كيلو، وعلوها متران ونصف المتر؟! وبعد ألسنا في حاجة إلى سلم يمكن الكاهن من المباركة عليه؟

أليس يحتاج إلى جرة نبيذ وصينية خبز؟ إنه منسف!

وأخيراً أقول: كل هذه وسائل مختلفة عرضاً متفقة في الجوهر، والله الهادي إلى الصواب. ثم كيف لنا أن ننكر الوسطة ما زالوا يزعمون أن الوسيط يخاطب الأرواح، وأنه إذا كان ملكة جمال كان مستطيماً أكثر. وكان أقوى وأفعل لأن الله جميل ويحب الجمال.

ولولا الوسائط لم تكن عيال بأسرها، بل قرى ومدن وقصبات تستأثر بوظائف الدولة ومرافقها! أما من ليس لهم يد وواسطة، فلينتظروا.